الأخبار
al-akhbar

■ رئيس التحرير ـ المدير المسؤول:
ابراهيم الأمين

■ نائب رئيس التحرير:
بيار أبي صعب

■ مدير التحرير:
وفيق قانصوه

■ مجلس التحرير:
حسن عليق
إيلي حنا
أمل الأندري

■ صادرة عن شركة أخبار بيروت

■ المكاتب: بيروت ـ فردان ـ شارع دونان ـ سنتر كونكورد ـ الطابق الثامن
■ تلفاكس:
01759500
01759597
ص. ب 113/5963

■ الإعلانات
الوكيل الحصري
ads@al-akhbar.com
01/759500

■ التوزيع
شركة الأوائل
01/666314ـ15 ـ
03 / 828381

■ الموقع الالكتروني
www.al-akhbar.com

■ صفحات التواصل
/AlakhbarNews
@AlakhbarNews
/alakhbarnewspaper

صفقة مع الشيطان

«لا يخيف أصحاب الحركة الصهيونية التهويل من بعيد والجعجعة. بل الشيء الحقيقي الذي يخيفهم هو الموت. ولو وجد في سوريا رجل فدائي يضحّي بنفسه في سبيل وطنه ويقتل بلفور، لكانت تغيّرت القضية السورية من الوجهة الصهيونية تغيّراً مدهشاً»

انطون سعاده 1925

فراس الشوفي

كان كلّ شيء زائفاً. عينا دونالد ترامب الملوّنتان، انكسار الضوء حولهما ببياض فاقع، وضحكات بنيامين نتنياهو، الهاربُ من جريمة فساد إلى جريمة تاريخ. الحاضرون جمهور في مسرح هزلي، دُعيَ لتبادل الاعترافات مع المُهَرِّجَيْن. جلابيب «عرب الاعتدال» الواقفة في الهواء، كانت «كومبارس». تنوّعت انطباعات المشاهدين مع دهشةٍ عامّة (قصيرة الأمد). تماماً، كصدمة تهديد ترامب بقصف مواقع إيران الثقافية (مقدمة لحرب الآلة على الإنسان؟).

قبل ذلك بأيام، في أورشليم المحتلة، سَبَقَ التصفيقُ الصفقة. تظاهرة بألوان العتم. 50 «مقهوراً»، وحزين واحد نادم على الماضي من رؤساء العالم، حضروا على عجلٍ لمسح دموع نتنياهو، في «المنتدى الدولي حول الهولوكوست».

الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون يفتّش عن نجومية. وهو يحضّر لقانون تجريم معاداة الصهيونية في فرنسا، افتعل غضباً ومنع شرطياً صهيونياً من الدخول إلى الكنيسة. هل هو صراع عاصمة كاثوليكية لحجز حصّتها من تركة الله المحتلّة؟

اكتفى البريطانيون بحضور الأمير تشارلز ووفد برلماني. جميل بلفور ومارك سايكس، أكبر من عتب نتنياهو.

في احتفال المهزلة، ظهر الرئيس الألماني فرانك فالتر شتاينماير، وأفلتَ أنجيلا ميركل. «الكفّارات» التي تدفعها ألمانيا منذ 70 عاماً ما عادت تكفي. العلاج الفعّال للشعور بالذنب في القرن الجديد، هو مباركة ذنوب الآخرين. السؤال للقرن المقبل: هل سيشعر الأحفاد بذنب آلام الفلسطينيين؟

الرئيس فلاديمير بوتين، كان نجم الحفل بشهادة الإعلام العبري. إسرائيل مدخل روسيا الجديدة إلى الغرب (إذا أحبّك الطفل، قبّلك الأهل ولو على مضض). لوبيات المال اليهودية تساعد روسيا في تجاوز العقوبات الأميركية. مليون روسي على أرض فلسطين يمنحون موسكو نفوذاً داخل الكيان. حصار الوحش البولوني أولويّة عند سيد الكرملين.

وإسرائيل، «تساعد» أحفاد الجنود الحمر، في كشف التشويه الغربي لدور السوفيات خلال الحرب الثانية. أول «المكاسب»، استعادة أملاك للكنيسة الأرثوذكسية الروسية في القدس. روسيا إذاً حليف سياسي للجميع، من دون عواطف. تساعد سورياً على ضرب الجماعات الإرهابية، وتغضّ الطرف عن إرهاب الدولة اليهودية.

صفقة القرن، فعلاً. اختصار لمئة عام من صناعة الوهم، وآلاف السنين من التزوير. أسوأ ما فيها، نقاش ضحاياها للتفاصيل. الإعلام العربي وبعض الإعلام اللبناني يغرق منذ الثلاثاء الماضي، بشرح الخطّة/ الصفقة: حدودٌ وأنفاق ومصادر رزق. بمعنىً آخر، تبسيط الموت للفلسطينيين بانفراج اقتصادي متخيّل.

الذين ضاقت بهم السبل، حتى صار موتهم سلاحهم، لا يناقشون المسألة الفلسطينية إلّا في جذر الصراع. والأصل، أن عصابات يهودية صهيونية جاءت إلى فلسطين بدعم دولي وخرافات تلمودية، هجّرت الفلسطينيين بقوة الدماء والسلاح والمجازر، وفرضت تغييراً ديموغرافياً عنصرياً لم يسبق له مثيل. لماذا النقاش في التفاصيل إذاً؟ الحل معروف: عودة كامل الأرض إلى الفلسطينيين، وعودة الفلسطينيين إليها.

هل ولدت الصفقة من فراغ؟

اتّسم الرد الفلسطيني، منذ ثلاثينيات القرن العشرين، بالانتفاضات العفوية، المدنية والمسلّحة. استند أهل الأرض إلى حاضنة، سُمّيت عربية وإسلامية. لكن الحاضنة تعرّضت لاهتزازات خطيرة. دُقّت المسامير في العروبة كحامل لحقوق الفلسطينيين، منذ صَمَتَ العرب على التقسيم الأوّل في عام 1947. إخراج مصر من الصراع في كامب ديفيد، مسمارٌ برتبة خازوق. توالت الطعنات. محاولة 17 أيار في لبنان، ووادي عربة في الأردن. أما المقتل، فكان أوسلو، وجنوح ياسر عرفات نحو صلح منفرد. سجّل عرفات أوّل تنازل فلسطيني، حين بحث عن وطنٍ بديل، وسمح لمقولة: «نقبل بما يقبل به الفلسطينيون»، أن تصير نهجاً. ورث محمود عبّاس «الأوسلوية»، أو صنعها، وصارت خبزه. أما الحاضنة «الإسلامية»، فانقسمت اليوم، بين إيران وتركيا، منذ صار خادم الحرمين خادماً لإسرائيل أيضاً.

كل هذا، يدفع ترامب إلى الرهان من دون خوف. أن يُصرّ الرئيس الأميركي على اعتراف فلسطيني بيهودية إسرائيل، يعني أن النظرة الأميركية التقليدية للصراع تغيّرت، وأن الولايات المتحدة لم تعد تعترف بالهويات الوطنية أو الدول المركزية. وهذه «المراجعة» لحق تقرير المصير كشف عنها عديدون من مروّجي السياسات الغربية في مئوية سايكس ــ بيكو قبل أربعة أعوام. وعلى هذا الأساس، فإن شعوب المنطقة، منطقتنا، ليست شعوباً كتلك التي استطلعت لجنة «كينغ ـ كراين» في 1919 حق تقريرها لمصيرها. بل جماعات، دينية، يؤسس اعتراف ترامب بدولة يهودية، لاعترافه بها، دويلات سنية وشيعية وكردية ودرزية و... في محيط إسرائيل (هذا بالمناسبة، لا ينسحب على شرقنا فحسب. الدعاية الأميركية المكثّفة هذه الأيام حول مظلومية الإيغور في إقليم شيجيانغ الصيني، وتصريحات مايك بومبيو خلال جولته في آسيا الوسطى، وعودة الخطاب الطائفي والعرقي إلى البلقان من بوابة الجبل الأسود، تؤشّر إلى نصفٍ أول صعب من قرن ملتهب).

حتى الفلسطينيون، لا يتعامل معهم ترامب ونتنياهو وجاريد كوشنير كتلة واحدة. هم ليسوا فلسطينيين أصلاً في حساب هؤلاء، بل سنّة ومسيحيون ودروز وبدو، لكل منهم قوانينهم ومصائرهم (لذلك صمت العرب ورفع رجب إردوغان صوته؟).

مسارٌ بدأ فعلاً مع سقوط بغداد بداية القرن، واستمر بـ«داعش» والحرب على سوريا. وبلغ الذروة، مع تحوّل السّكين (سلاح الفلسطينيين الذين لا سلاح لهم بوجه الماكينة العسكرية الإسرائيلية)، إلى أداة جريمة، بيد متطرفين يطعنون الأبرياء في شوارع المدن الأوروبية.

كيف تنجح صفقة القرن؟

لكي تنجح صفقة القرن، على إسرائيل أن تقضي على كل من يعترض طريقها. مشروع إبادة جماعية من الصعب تحقيقه، إن لم يكن مستحيلاً، بالأسلحة التقليدية. لكن، ما المانع، إذا اقتتل المعترضون والموافقون؟ أو حتى إذا اقتتل المعارضون في ما بينهم، على فُتات الدول والأفكار والأنظمة اللامركزية في الدوائر المفضلة على قياس الطوائف والمذاهب والجماعات؟

في لبنان، مثلاً، بدأ فارس سعيد ومن مثله في الماكينة الإعلامية، الترويج لـ«السلام» ولـ«لبنان آخر» غير لبنان المقاومة. ويدفع الأميركيون، بخبثٍ كبير، الجيش اللبناني للخروج عن عقيدة ما بعد اتفاق الطائف، بما يؤسس أوّلاً لإسقاط دور الجيش الوطني الواحد، ولاقتتاله مع المقاومة، التي يصرّ ترامب وصحبه على وصفها بـ«جماعة حزب الله»، ليميّزها عن غيرها من اللبنانيين. تخيّلوا، أن ينجح فارس سعيد في تقسيم لبنان!

وفي العراق، دعوات التقسيم أعلى صوتاً من دعوات الوحدة: من الدستور المريض، إلى الاستفتاء على الاستقلال الكردي الذي وأده قاسم سليماني أوّل مرة، إلى تآمر المجتمعين في أبو ظبي للبحث عن إقليم سنّي في الغرب. وفي الأردن، السيناريوات الأربعة التي وُضعت بين يدي الملك عبدالله، في أحلاها يحتفظ بسلطة معنوية، مقابل سلطة فعلية للفلسطينيين المهجّرين، في ملكيّة دستورية فوق وطن بديل، يقتتل أهله، كل من موقعه على ضفّتي نهر العمادة. والأنكى، أن إسرائيل، تخطّط منذ عام على الأقل، لخطة وراثة عبّاس في الضّفة الغربية، بعد اقتتال داخلي وعشائري دام تُسَعّر ناره بين أشباح السلطة. لدى إسرائيل الجرأة أن تمدّ أعداءها المفترضين بالسلاح، مطمئنةً إلى وجهته.

تبقى سوريا، الدولة الوطنية التي لا تزال تقاتل، منذ عام 1970، ضد التقسيم، في لبنان وفي العراق وفي سوريا ذاتها.

إسرائيل لا تتنفّس، إن لم تكن وسط إسرائيليات لجماعات متناحرة، يكون النموذج اليهودي فيها هو الأقوى والأقدم وصاحب الدعم الدولي الأكبر.

كيف تسقط الصفقة؟

الأنباء الجيّدة، أن الصفقة ليست فرضاً «ترامبياً» على الفلسطينيين فحسب. بل إسقاط على اليمين الإسرائيلي «العميق»، الذي يرفض الحديث أساساً عن أي دولة فلسطينية أو أي حقّ فلسطيني في «أرض الميعاد» ولو على شبر من الضفّة، ومشروعه الأساس «أرض إسرائيل المتخيّلة» من الفرات إلى النيل. أمّا حجّة الرفض لدى لوبيات يهودية فاعلة داخل الولايات المتّحدة، فسببه «تهوّر» ترامب، لأن «قطع الأمل أمام الفلسطينيين بأي تنازلات إسرائيلية، وتهديد إيران بالحرب، ستدفع ثمنهما إسرائيل بلا شكّ، بما يهدّد مستقبل الدولة اليهودية».

إذاً فكّر الفلسطينيون والسوريون واللبنانيون وغيرهم من أصحاب الحقوق بأزمات الكيان لتفاءلوا، على أن لا يصير ذلك دافعاً للخمول. 70 عاماً، ولم تستطع إسرائيل فرض الاستقرار، لتقف الآن على عتبة الوجود: إما تكون الآن، أو لن تكون إلى الأبد. أخطأ الأميركيون وإسرائيل حين اعتقدوا أن قتل سليماني يمنع خروج باسل الأعرج جديد أو عمر أبو ليلى آخر. وهل يمكن ضمّ الجولان واقعاً، من دون التخلّص من آلاف الجولانيين؟ وكيف يُرَوَّض الأردن، والفلسطينيون فوق الهضبة الأردنية يرقبون حقولهم وبيوتهم؟ المعركة، هي أن تستمرّ المعركة.

تنتهي الحروب بصيغتين لا ثالثة لهما. طرف منتصر يفرض على طرف مهزوم «صكّ استسلام». من قال إن الحرب في فلسطين انتهت؟ لا أحد يملك قرار إنهاء حق شعب في أرضه المسلوبة. كيف إذا كانت الأرض فلسطين، و«الطرف الآخر» عصابة تحاول أخذ شكل دولة. إلّا أن الحديث عن «نهج سلمي» والقبول بالتفاوض على أساس القرارات الدولية بدأ يتردّد من جديد. طرفة أخرى من طرائف الـ 48 ساعة الماضية. إردوغان في الشمال يتحدث عن حق الدولة السورية في أراضيها، وصهيوني في الجنوب يتحدث عن وهب أرض ليست له. لم ينجُ لصوص الأرض يوماً بفعلتهم ولو عقدوا صفقات مع الشيطان... لقبض أرواحهم!

> **لوبيات المال اليهودية تساعد روسيا في تجاوز العقوبات الأميركية**

(أ ف ب)

نحو منظومة إقليمية تكرّس الصعود الآسيوي

سمير الحسن *

ضربت العولمة (Globalization) أطنابها في تعبير موازٍ للهيمنة الأميركية على العالم. طغى الدولار على مختلف دول ومجتمعات العالم، واستخدم الإنترنت لتكريس هذه الهيمنة، وإعطائها بعدها الثقافي، حتى قيل إن العالم أصبح قرية كونية. وفي فترات طويلة، استخدم الأميركيون جبروتهم العسكري لمزيد من الهيمنة، الأمر الذي لم تكن بدايته قنبلتي هيروشيما وناغازاكي عام 1945. أصبحت مجتمعات العالم واقعة تحت رحمة الأميركي، منذ ما بعد الحرب العالمية الثانية، والعمل باتفاقية «برتون وودز ـ 1944»، التي أثمرت وحدانية الدولار كعملة عالمية، وبدء تشغيل الإنترنت أواسط الخمسينات، من قبل الاستخبارات المركزية الأميركية، ليتطور لاحقاً، ويغزو العالم.

عبر الإنترنت، معطوفاً على الدولار، أمسك الأميركي برقاب البشرية، فاستخدم الأول لفهم مفاصل حياة المجتمعات حيث عجز المستشرقون. ومكّنت التقنية الجديدة ـ الإنترنت ـ الأميركي من حيازة أكبر منظومة معلومات في التاريخ، ليعرف بواسطتها كيف يخترق المجتمعات، ويكرّس سيطرته. بالتوازي، لم يكن ينقص الأميركي إلا سقوط رادعه على المستوى الاستراتيجي، أي الاتحاد السوفياتي، لكي يفلت من عقاله، ويمارس كل طاقته المتوحّشة لإذلال البشرية وإخضاعها. وقد فعل، ولا يزال.

انتهكت العولمة الحدود الجغرافية التي تكرّست عقب الحرب العالمية الثانية، ورعتها الأمم المتحدة، وباتت خصائص الدول والمجتمعات، في حال انتظار. لكن العولمة لم تفعل كما فعلت والدتها الرأسمالية، التي غيّرت المجتمعات الأوروبية تغييرات جذرية ثورية، قضت على الماضي الإقطاعي ـ الملكي ـ الديني، لتحلّ محلّها قيم الحداثة الناهضة على أكتاف الثورة الصناعية. تعايشت قيم العولمة الأميركية مع التقليد، لكنّ تقدمها التقني وضع المجتمعات التقليدية في الصفوف الخلفية من الاهتمام. إلا أنّ شرائح كثيرة من المجتمعات التقليدية، ظلّت تعتبر نفسها خارج سقف العولمة، وتداعياتها، فظلّت تتعاطى في شؤونها كأنها حالات قائمة بذاتها، تعاني معاناتها منفردة، وتغني على ليلاها وفق المدى القصير الذي استطاعت رؤاها بلوغه. بمعنى آخر، ظلّ كثير من المجتمعات، وقواها الاجتماعية والسياسية، معتبراً نفسه في حالة استقلال وطني.

من هذا المنظور، تشهد الساحة اللبنانية تطورات السابع عشر من تشرين الأول / أكتوبر المنصرم، وما بعد. طغت الكيانية اللبنانية على أبعاد هذا التحرّك، وصوّرت الواقع اللبناني المأزوم كأنه حالة قائمة بذاتها، بدأ تأزّمها «منذ ثلاثين عاماً» بحسب ما عبّر عنه كثيرون، ثمّ تفاقمت التطورات، فامتلأ الكوب، ولم تكن تنقصه إلا نقطة واحدة لكي يصب، فكانت أحداث 17 تشرين الأول / أكتوبر كأنها هي هذه النقطة. هكذا صوّر كثيرون الحالة اللبنانية الراهنة.

مضى التحرك الاحتجاجي مطالباً بالتغيير ـ طبعاً المحلي ـ وتركزت شعاراته على فساد السلطة، ونهب الأموال، واسترجاعها، ولحق نظام المصرف ما يستحق من «بهدلة»، لأنه مارس «شواذاته» غير المرتقبة على الناس، وراح البعض يحاصر المصرف المركزي. سبق التأزّم اللبناني ما درج الأميركي على فرضه على دول عديدة من العالم ممّا عُرف بـ«الحصار»، وخصوصاً منها ما كان خارج محورها، أو محاولاً التفلّت من هيمنتها بتعزيز أوضاعه الاقتصادية والعسكرية، مثل الصين، وروسيا، وكوبا، وإيران وسوريا، وفنزويلا، وسواها من مجتمعات أبدت بعض عصبية على الهيمنة المعولمة المطلقة.

إن الذي يرى بعينين اثنتين، يستطيع تلمّس شكل الهيمنة الشامل، والذي يرى بعين واحدة، ينزوي في رؤيته لأزمته على أنها كيانية خاصة به. وبين الرؤيتين: واحدة بالصراع والمواجهة وصولاً إلى حل قد يكون بعيداً، لأنه شمولي؛ والثانية، تتخبّط في صراعاتها الكيانية كالتحركات الاحتجاجية اللبنانية بكل عناصرها، ومكوّناتها، متراوحة في موقعها، غير قادرة على الوصول إلى حلّ لأن الواقع اللبناني ليس منفصلاً عن واقع الهيمنة الأميركية المعولمة على العالم، ولا عن تداعياتها الإقليمية.

المشاركون في الاحتجاجات اللبنانية لا يريدون التوقّف عند التطورات التي حدثت في المنطقة، وبلغت ذروتها، وخصوصاً في المواجهة العالمية في الساحة السورية، وقد انعكست هذه التطورات على لبنان حالة شدّ وجذب قسرية، كونه جزءاً من حالة شاملة إقليمية لا تستطيع خطوط «سايكس ـ بيكو» منع تفاعلها، وتواصلها، فانزوى المشاركون في تحركاتهم اللبنانية المحلية، كأنّ لبنان «العظيم» ليس دولة صغيرة، ربما الأصغر في العالم، وكأنه يملك مقوّمات صمود أمام العواصف التي كانت تندلع دائماً، فراحوا يلعبون لعبة «الثورة» المحلية التي تبغي قلب السلطة، وإقامة حركة ثورية ربما وصل الوهم عند بعض أصحابها إلى اعتبارها «كومونة» أشبه بكومونة باريس 1871.

لم يتنبه كثيرون إلى لحظة اندلاع التحركات الاحتجاجية، يوم تمّ الاتفاق على توجه وزير الخارجية اللبناني جبران باسيل إلى سوريا، وفي طيات ذلك الموقف الانجذاب الحتمي على وقع تداعيات الأحداث السورية، وما وصلت إليه من نتائج بات الجميع يعترف معها بهزيمة المحور الأميركي، وتقدم محور الدول الشرقية وتحالفها. وبذلك، يمكن القول إن الاحتجاجات وقعت منعاً لاستكمال أهداف الزيارة، وهي فتح باب الاتفاق مع المحور المنتصر سورياً، والانضمام إلى المنظومة التي باتت تتشكل وتتظهّر، موضوعياً، وبالتدريج في المنطقة. بعد ذلك، تقع واقعة اغتيال الشهيدين قاسم سليماني وأبو المهدي المهندس وصحبهما، لتسقط قناع أية محاولة للمناورة، أو اللجوء إلى التسويات. لم يكن أمام قوى المحور الشرقي إلا الرد بقساوة موازية لوحشية وصفاقة الاغتيال، فكانت الصواريخ الإيرانية على عين الأسد خير دليل على بدء انقلاب موازين القوى، ذلك أنها المرة الأولى منذ الحرب العالمية الثانية، التي تمارس فيها دولة باسمها الرسمي والعلني عملية دكّ لمعقل من معاقل الولايات المتحدة الأميركية، لتعلن مبادرة غير مسبوقة بطرد هذه الأخيرة من العراق، والمنطقة.

وبالنسبة إلى لبنان، سيدرك عاجلاً أم آجلاً أنّ الحل لمشكلته، هو بالتعاون والتكامل مع الدول المجاورة في المحور الشرقي، والمشاركة في تشكّل منظومة الدول الساعية للاستقلال عن العولمة، ليكون جزءاً منها، فيقطف، على غرارها، ثمرة استقلاله الوطني، وكلّما تأخّر زادت خسارته، ودفع المواطنون اللبنانيون المزيد من الأثمان، وهدر الطاقة، وتفويت الوقت، والفرص.

*كاتب وباحث في الشؤون الاستراتيجية

> **سبق التأزّم اللبناني ما درج الأميركي على فرضه على دول عديدة من العالم ممّا عُرف بـ«الحصار»**

وتسألون عن «صفقة القرن»؟ *

حسن خليل **

وتسألون عن «صفقة القرن»؟ هو ليس سؤالاً، بل هو استفهام. فأيّهما أسبق، القضية أم الموضوع أم القوى التي تتفاعل معه؟ مناسبة هذا السؤال، سببها الأوضاع المتراكمة في منطقتنا العربية بشكل خاص، ومنطقة الشرق الأوسط بشكل عام، لأن ما يجري فيهما لعبة، ولكن بملاعب عديدة ولاعبين كثر. وعلى تلك الأرضية تدور رحى المشاريع المتقالية، المتباينة أو المتفق عليها، منذ قرن من الزمن، لتستمر، وبشكل ممنهج ومدروس ومخطط له.

هي تلك اللعبة القذرة التي أدخلها «بلطجية» العالم المتحضّر، القابعون حيث موائد اللئام منتشرة. هم من استلب أحلام بشر وشعوب وأموالهم، وبنوا لهم مقابلها قصوراً من رمال، بنسمة هواء تتطاير ذراتها هباءً منثوراً. هم من أنتج الاستعمار كبديل للاحتلال أو مكمّل له، والتجزئة كبديل عن الوحدة العربية المنشودة. هم من دفع باللعب، وعلى المكشوف إلى الخشونة والضرب من تحت الحزام، حين سلبوا الأرض عنوة من أصحابها وأعطوها لمن لا يستحقها، ومن دون أي رادع أو وازع.

هو مشروع خبيث وبرؤوس متعدّدة، أطلّ من زوايا الملعب الأربع. قوى وجبروت واستعمار واحتلال وتبعية وجهل وأميّة وفقر وعوز... صاغته ممارسات رأسمالية متوحشة فالتة ومتفلتة، حملته حاملات الطائرات والموت القادم من الغرب، صنعته أيادٍ تعيش في خراب الغربان المتّشحة بلون أسود قاتم. أقامت بين ظهرانينا ردحاً من زمن غابر، وتستمر. زرعت في ملاعبنا مقدّمي خدمات، يعرفون، ومن نظرة واحدة، ماذا يريد سيدهم، فيهرعون إليه مسبحين بحمده شاكرين. هي أنظمة بُنيت على باطل، واستعمار تمادى في غيّه حدّ الإسفاف، وفي بطشه حدّ الجرائم الموصوفة، وفي قهره حدّ إعدام الحياة الكريمة.

لا تسألوا أيهما أكبر اللعبة أم اللاعبون؟ أظن بأن ليس هناك ثمة جواب واضح يمكننا الركون إليه، ليس لصعوبته، بل لضرورة المعرفة المسبقة، من نقصد بهذا السؤال؟ هي مواجهة متصلة في منطقة الشرق الأوسط، ميادينها كل الدول ووقودها الشعوب. اللاعبون كثر، فيما اللعبة كبيرة. مشروع بدأ منذ مئة عام، حملت راياته إمبريالية معولة وبمنازل كثيرة. أصحاب نفوذ ورأسمال. شعوب غُلب على أمرها عقود طويلة، تكمّشت بقشة خوفاً من الغرق. استجابت لمطالب، ظاهرها عكس ما تبطنه. قبلت وثارت وخلعت سلاطينَ وتاريخاً وعقوداً من التبعية والقهر والقتل والاستلاب. هي هدية الحرب الكبرى ومجاعتها وجرادها، هي بداية التحضّر القادم على ظهر ترسانة من سلاح، كان قد جُرّب في ساحات بعيدة وفعل فعله. معهم بدأت اللعبة، ومن على ذلك الملعب العربي الواسع والشاسع، ولّما تنته بعد، وعلى ما يبدو بأن آجالها طويلة.

هي لعبة سيطرة كاملة، أبطالها هؤلاء، سليلو ذلك التاريخ المتواصل؛ مشروع غربي برؤوس وأهداف تتعدى المعلن منها. وكيانات محلية على مقاس الاستخدام المشتبه فيه لسدّ حاجاته وجشعه وطمعه. وفرز ما دون الوطني لأبناء المنطقة، كي تستعيد القبائل والعشائر مجدها الغابر وتسترجع خصالها ومقومات وجودها؛ القتل والغزو واستثارة الغرائز... وطبيعة علاقات تسودها المصالح وتغذيها الأحقاد، فتنمو الزبانية في أبشع صورها وتتجسد التبعية بأسوأ أشكالها، فيغدو المواطن مسلوب الانتماء هجيناً، واقعاً بين هوية مفقودة وأخرى غير متبلورة.

هو ابتلاء لا براء منه، متأصل في تلك البلاد المترامية من بلاد العرب والجيران، قوس يمتد من مغرب يلامس الأطلسي إلى مشرق يحاذي السور العظيم. غطّ في نومة أهل الكهف ولّما يستفق بعد. الأمل مفقود والعهد معقود على مجهول طال انتظاره، وفي مرحلة الانتظار تلك لا بأس من تمرين على المواجهة؛ إرهاصات عبّرت عن نفسها بمناسبات عديدة. نزلت إلى الشوارع وصرخت بالرفض. جموع تكدّست أحلامها، فخرجت لتطالب بفسحة من حرية ضائعة بين زوارب الطوائف وحدود المذاهب، المحاذية لحدود المعلن من مشاريع مشتبه فيها تعشّش في جوانب الملعب. صرخات لا تزال تعلو، وإن بخفر إلّا أنها تشق صمت الاستسلام المتأصل، معها ستصبح اللعبة أجمل، فليكن إذن اللاعب المحلي هو أساس الفريق؛ فالمرمى واضح، والهدف مطلوب والحكم كاذب، لكن تبقى خبطة الأرجل وقوتها مع النظرة الثاقبة هما الأساس، فلنسدد داخل المرمى إذن ولنسجل، ولو لمرة واحدة. الفرصة متاحة فلا تضيعوها.

■■■

وتسألون لماذا «صفقة القرن» اليوم؟ أيضاً هو سؤال استفهامي، فتلك الصفقة ما هي إلّا المحصلة الطبيعية لذلك المشروع، بشقّيه الخارجي والداخلي. هي ذلك المولود الناتج من تطابق مصالح بين إمبريالية متوحشة ونظم هجينة. هي الأصل وهم الأدوات. فأتى مشوهاً غير قابل للحياة، ومع ذلك، جاء من يريد فرضه، وبالقوة القاهرة. اللعبة هنا بدت واضحة، لا لبس فيها وأيضاً اللاعبون؛ هم أميركا والكيان الإسرائيلي والرجعيات العربية بكل ألوانها، هم أموال النفط وريوعه والتقسيم... أمّا نحن، فنحن المقاومة الوطنية الفلسطينية والعربية الشاملة، التي قالت لا، منذ ما يقارب القرن من الزمن ولّما تزل؛ منها كان الرد وعليها اليوم استكماله؛ الردّ الذي سيؤكد بأنه، مهما كانت اللعبة كبيرة وأيضاً اللاعبون، فإن إرادة المقاومة هي الأجدى والأبقى والأنفع.

فالمواجهة الشاملة لا تعني هنا المعركة المتماثلة، وإنما تعني في جوهرها، العمل في كل الساحات وحول كل القضايا، وإن اختلفت الوسائل. فلتكن القضية الأساس ـ فلسطين ولتعد، سبباً لإعادة بوصلة الصراع إلى مكانه وطبيعته الأصلية: قضية فلسطين، ليست قضية أرض انتُزعت من أصحابها أو شعب شُرّد في بقاع الأرض فقط، هي قبل كل هذا وذاك، قضية مشروع استعماري بدأ منذ قرن كما أسلفنا، هدفه السيطرة والهيمنة على المنطقة وقهر شعوبها، وما الكيان المصطنع الناتج عنه وبوظيفته، إلّا شكل متقدم من الفاشية العنصرية وموقع متقدم للعدوان. على هذا الأساس تصبح مقاومتُه مقاوَمَة نمط الهيمنة بذاته، والذي ما انفكت الولايات المتحدة الأميركية تمارسه، وبأبشع صوره ووسائله. وهذا الذي نؤكد عليه، يدفع باتجاه أن تتعدى موجبات مواجهته وتتنوع لتشمل كل من يؤمن بالتحرر والعدالة والحرية والتقدم في المنطقة والعالم، ومن خلال العمل على إطلاق جبهة مقاومة عربية شاملة وبنائها، وعلى كل الصعد وبمختلف أشكال النضال، في مواجهة أهدافه الاستيطانية والجيو- سياسية والاقتصادية والاجتماعية، ودعماً لقضايا التحرر الوطني في بلداننا العربية، ولقضية فلسطين وشعبها كي لا يُترك وحيداً في هذه المعركة، وأيضاً مع لبنان في ظل التهديدات الإسرائيلية المتكررة والخروق المتواصلة لسيادته، والمعرّض دوماً لاعتداءات صهيونية.

من هنا تصبح مسألة تلازم ذلك العمل مع تطوير أساليب النضال وتنويعها، ضرورة ملحة وتحديداً في بلدان المواجهة المعرّضة للعدوان المباشر، بغية تأمين أفضل شروط التصدي الناجح لمفاعيل تلك الصفقة، التي من المحتمل أن يطغى عليها، في الأمد القصير والمتوسط، الطابع العسكري. وهنا يأتي دورنا كقوى مقاومة بإمكاناتها، وبالتنسيق في ما بينها، لتأمين أفضل شروط المواجهة، بالإضافة إلى العمل على تصعيد التحركات الأهلية والشعبية بهدف حشد وتعبئة طاقات شعوبنا ـ وبخاصة شبابنا ـ واقتصاداتنا ومؤسساتنا ومنابرنا الثقافية والإعلامية في مواجهة التطبيع بكل أشكاله.

وهذا الأساس يجب أن يشكل منطلقاً حاسماً لاستكمال بناء "المشروع السياسي" القائم على المواجهة الشاملة، في الخارج كما في الداخل؛ أي مواجهة المشروع الإمبريالي الأم عبر تعرية أدواته المحلية وتفكيكها. ولتأمين أفضل شروط النجاح في هذه المواجهة. وبالنظر إلى أن أولوية هذه المواجهة تتجاوز، ولأسباب موضوعية وتكتيكية، غيرها من الأولويات، ما يستوجب منّا المبادرة بالتوجّه نحو كل تلك القوى والأحزاب اليسارية والقومية في منطقتنا، المؤمنة بهذه الخيارات، والتي يمكن أن نشكل معها مجموعة ضغط تتفق وإياها على المبادئ والعناوين، لحثّها على توحيد جهودها وطاقاتها لمواجهة المشروع الأساس وإسقاطه. هي مواجهة مستحقة ومطلوبة، اليوم وليس بعد حين. فلتعد الشوارع العربية إلى موقعها الطبيعي كمكان لتصويب وجهة تلك المواجهة، فهي صاحبة الحق الشرعي.

* افتتاحية العدد الأخير من مجلة «النداء»

** عضو المكتب السياسي، مسؤول العلاقات السياسية في الحزب الشيوعي اللبناني